تطور اللغة في العصر العباسي

- ٢ -

ومن الكتب التي قد تهدينا سواء السبيل في معرفة تطور اللغة على أيّام العبّاسيين كتاب : نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضي التنوخي المتوفّى سنة ٣٨٤ .

صحّح هذا الكتاب المستشرق الانكليزي الأستاذ « مرجليوث » وهو أحد عشر مجلداً ، لم يظهر منه إلاّ الجزء الأول والجزء الثامن ، وقد جاء في تعريف المجمع العلمي العربي بهذا الكتاب ما يلي :

« كتاب نشوار المحاضرة أو جامع التواريخ تصنيف القاضي أبي علي المحسّن ابن علي التنوخي المتوفى سنة ٣٨٤ من أمثل ما ألّفه الاخباريون في التاريخ والتراجم والاجتماع الإسلامي ، وربما كان هذا المصنّف نسيج وحده في موضوعه ، فهو لم يسرد وقائع التاريخ وأخبار رجاله كما سرده غيره ، وإنما هو أملى من خاطره أخبار الذين عرفهم في حياته من طبقة الوزراء والقضاة وكبار الكتّاب والعمّال الذين هم صفوة رجال الدولة العبّاسية في القرن الرابع للهجرة » .

والنشوار كلمة فارسية أصلها : نشخوار ومعناها جِرّة الحيوانات المجترّة ، وقد استعملها المؤلف بمعنى الحديث ، فمن قوله : طيّب النشوار والأدب ... حسن النشوار ، راوية الأخبار ...

شبكة الألوكة
www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
الجمهورية العربية السورية مجمع اللغة العربية

قد يكون السبب في اهتمام المجمع العلمي العربي بكتاب نشوار المحاضرة أنه يصوّر الحالة الاجتماعية في القرن الرابع ، وفيه طرف من أخلاق أهله وعاداتهم وبذَخهم ومعتقداتهم وتصوراتهم . أمّا نحن فقد نهتم بهذا الكتاب لاشتماله على طائفةٍ من الألفاظ العبّاسية تثبت لنا تطور اللغة في ذلك العصر .

لقد كتب أحمد باشا تيمور عدّة مقالات فسَّر فيها الألفاظ العبّاسية الواردة في الجزء الأول من نشوار المحاضرة ، فقد طالع هذا الجزء وعثر فيه على ألفاظ كثر ورودها في أخبار ذلك العهد ، ومعظمها لم تتعرض المعجمات لذكره أو لتفسيره تفسيراً شافياً ، وقال في هذه الألفاظ إنها عبَّاسية من باب التغليب لأن ِجلّها من الألفاظ الحادثة في العصر العباسي الأول إمّا بالتوليد والتعريب أو بالاستعمال في غير ما وضعت له بضروب من التجوز والتوسع .

إذا كنت قد استشهدت بكتاب نشوار المحاضرة فليس معنى هذا أنه الكتاب الوحيد الذي يشتمل على ألفاظ اقتضاها تطور اللغة ، ففي كتاب البخلاء للجاحظ كثير من الألفاظ خلقها عصر الجاحظ لم تكن معروفة من قبل ، إلا أنه ليس في استطاعتنا حصر الألفاظ التي هي من هذا النوع ، فإن عملاً مثل هذا العمل يحتاج إلى معجم ضخم نظير معجم « دوزي » ولكننّا نستشهد بما نستشهد به من الألفاظ لنأتي بنماذج من تطور اللغة في عصر بني العبَّاس ، ومن مظاهر هذا التطور خلق ألفاظٍ في عصرٍ لم تكن معروفة في العصر الذي قبله ، فالبحث عن تطور الألفاظ يختلف عن البحث عن تطور الاُسلوب ، في الأمر الأول نهتم باللغة ومفرداتها ، أمّا في الأمر الثاني فإن اهتمامنا ينصرف إلى الأسلوب ، أي إلى أداء المعنى وتركيب الجمل .

فلنشرع بعد هذا في النظر في فئةٍ من الألفاظ التي وردت في كتاب نشوار المحاضرة ، وقد تولّى تفسير هذه الألفاظ المرحوم أحمد باشا تيمور

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

على نحو ما تقدمت الإشارة إليه ، ونشر مقالاته في الأعداد الأول من مجلة المجمع العلمي العربي ، ولا غنى لي عن أن أعيد في هذا المقام بعض ما فسّره من الألفاظ ، وإني لأرجو أن يتسع صبرنا لسماع هذه الألفاظ ، فإن مباحث اللغة من عادتها أن تكون جافة ، إلاّ أنّ الألفاظ التي سنمرّ بها قد تدلنا على أمور تتصل بالحياة وبالحضارة ، فاذا صبرنا على مرارتها فانما نصبر لنذوق حلاوة هذه الحياة وهذه الحضارة .

من هذه الألفاظ لفظة : التُنّاء ضبطها مفسّرها بضمّ الأول وتشديد النون وهي جمع تانئ ، ومعنى التانئ الدِهقان أي رئيس القرية وحاكمها ، وقد وردت هذه اللفظة في أحسن التقاسيم للمقدسي في وصف شيراز وأهلها : ولهم خصائص وصنائع وعقل ودهاء ومعروف وصدقات وبهاء ومشايخ ووجوه وتُنّاء .

ومن هذه الألفاظ : أصحاب الستائر ، والمراد بها بحسب تفسير تيمور باشا مجالس الغناء التي للقينات ، لأنهم كانوا يضربون سِتارة تحول بينهنّ وبين المستمعين ويغنين من ورآئها فالمراد هنا : من ورآء الستائر ، لا الستائر ، وكان الخلفاء إذا أرادوا سماع الغناء سمعوه من ورآء ستار يحجُبهم عن الندماء والمغنين .

وتضاف إلى هذه الألفاظ : المتقاينون ، والمرد بها المستهترون بمصاحبة القيان وإنفاق المال عليهنّ ، وهو اشتقاق مولّد مأخوذ من القينة أي المغنّية ، والظاهر أنهم توسعوا في التقاين بعد ذلك فجعلوه لمطلق الإسراف على اللهو ، لأن الغالب فيه أن يكون على القيان وأمثالهنّ ، وقد تكرر ذكر هذه اللفظة في كتاب النشوار .

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذه اللفظة تدل على حالةٍ اجتماعية في أيّام بني العباس ، أما اللفظة التالية وهي : الزرّاقون ، جمع زرّاق فانها قد تدل على حالة خلقيـة ، جاء تفسيرها في شفاء الغليل على هذا الوجه : أكذب من زرّاق ، وهو الذي يقعد على الطريق فيحتال وينظر بزعمه في النجوم ، وزرقت عليه أي موّهت عليه ، قاله أبو بكر الخوارزمي في أمثاله ولم يذكر كونه مولَّداً ، لكنه مذكور في اللغة الساسانية .

أمّا اللغة الساسانية فهي ألفاظ مولَّدة اخترعها بنو ساسان ، وهم قوم من العيَّارين والشطَّار ويقع من لغاتهم كثير في أشعار المولّدين فلا يعرفها الناس ، ينسبون إلى ساسان ، رأس الشحاذين وكبيرهم ، وهو أحد ملوك الفرس المعروف بساسان الأكبر ، عهد أبوه بالملك لأخيه ، فأنف من ذلك وانطلق فاشترى غنماً وأقام برعاها بالجبال ويعاشر الرعيان ، فعيِّر بذلك ، ثم نسب إليه كل من تكدّى أو باشر أمراً حقيراً من العمي والعـور والمشموذين والقرّادين والـكلاّبين .

وقد يستمرّ تيمور باشا في تفسيره ، فينتقل من هذه الطبقة من الألفاظ التي تدلّ على بعض الحياة الاجتماعية إلى طبقة ثانية تدخل في أمور الطبّ ، من هـذه الطبقة : الأنبجات ، بالفتح فسكون فكسر ، وهي المربّيات الطبية عند الأطباء ، وفي القاموس : الأنبج كأحمد وتكسر باؤه ثمر شجرة هندية ، معرّب : أنب ، وقال غيره : معرّب أنبه ، فأبدلوا الهاء الأخيرة جيماً على ما هو معروف .

وقد يفيدنا التبسط في هذا المجال لأن الغاية إنما هي التنبيه على ألفاظ وردت في زمن العبّاسيين إمّا بالتوليد أو بالتعريب أو بطريقة ثانية ، وكل هذه الألفاظ شواهد على تطور اللغة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن هذه الألفاظ ما يدخل في محض العربية ، ولكنه تغيّر في عصرنا هذا ، فنجد في الكتاب قول المؤلف : صرف الوزير فلاناً ونحن نقول اليوم : عزله ، وصرّف الخليفة المقتدر فلاناً بفلان أي ولاّه مكانه ، وقد صرّفني الوزير طول هذه المدة أي شغلني بالوظائف .

ومنها قوله : أصحاب الأطراف أي عمّال النواحي ، إلى كثير من الألفاظ الداخلة في أكثر وجوه الحياة ، في الزراعة والطب والإدارة وغيرها .

ولا بأس بالاستمرار في الاستشهاد ببعض الألفاظ العبّاسية الواردة في نشوار المحاضرة مما تولّى تفسيره تيمور باشا :

من هذه الألفاظ : الطيّار ، لقد وردت هذه اللفظة مرات كثيرة في الكتاب ، ذكر المفسّر مواضعها التي وردت فيها ، من هذه المواضع : فكنت جالساً يوماً إذ جاءني بوّابي وقال : طيّار عريب بالباب وهي تستأذن ، فعجبت من ذلك وارتاح قلبي إليها فقمت حتى نزلت بالشط فاذا هي جالسة في طيّارها .

ومنها : حضرت في بعض أيّام المواكب باب دار الخلافة ، فوقفت في طيّاري والقضاة في طيّاراتهم .

يقول تيمور باشا : يفهم من بعض ما تقدّم أنه شيء يركب ، ومن بعضه أنه نوع من السفن ، ولم يرد هذا المعنى في معجمات اللغة التي بأيدينا ، ومما يؤيد أنه نوع من السفن قول هلال الصابئ في تاريخ الوزراء : أرزاق الملاّحين في الطيّارات والشذآءات والسميريات والحرّاقات والزلاّلات وزواريق المعابر ... ثم قال ويكثر ورود الطيّار في كتب الأدب والتاريخ بما يفهم منه أنه زورق فخم لركوب العظماء ، والظاهر أنهم سمّوه بذلك لأنه من السّفن الخفيفة ، السريعة الجريان كأنها لسرعتها تطير على وجه

شبكة الألوكة
www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الماء . وفي أحسن التقاسيم للمقدسي في اختلاف لغات أهل الأقاليم أن الطيّار هو الزبزب ، وذكر أسماءً كثيرة له تختلف باختلاف الأقاليم ، منها : المعبر والقارب ولم تفسر المعاجم الزبزب بسوى ضرب من السفن .

وقد وردت هذه اللفظة في الأغاني ومروج الذهب . من هذا كله يتبين لنا أن العصر العبّاسي وضع ألفاظاً كثيرة للمراكب كالطيّارات والحرّاقات والزلاّلات والزبازب والمعابر والقوارب والسميريات ، فهذه ألفاظ ترينا من جهة تطوّر اللغة في عصر بني العبّاس ومن جهة ثانية تدلّنا على حضارتهم التي استلزمت هذه الأنواع من المراكب ، منها ما هو للتنزه ، ومنها ما هو للقتال . ومن هذه الألفاظ ما هو عربي المادة والصياغة .

وقد وردت ألفاظ كثيرة في نشوار المحاضرة تدلّ على التطور ، لا سبيل إلى ذكرها كلها فليست الغاية الاستقصاء في ذكر ما ولّده عصر بني العبّاس من الألفاظ ، فان مثل هذا الأمر يحتاج إلى معجم ضخم على نحو ما فعل « دوزي » في معجمه من تفسير الألفاظ المستحدثة التي وردت في كتب المتأخرين ، وبعضها عاميّ ، وإنما الغاية الإتيان بنماذج تثبت تطور اللغة .

وقبل أن أنتقل إلى أنواع ثانية من تطور الألفاظ أرى أن أغتنم هذه الفرصة للإشارة إلى أمرين :

الأمر الأول أن اللغة عرضة للتغيير في كل عصرٍ فالطيّارات في زمن بني العبّاس كانت ضروباً من السفن ، والطيّارات في عصرنا هذا معروفة فهي غير السفن وهذا دليل على تطور اللغة في كل عصر .

والأمر الثاني أن أهل الأقاليم كانت لهم لغة خاصة مختلفة على نحو ما جاء ذكره في أحسن التقاسيم للمقدسي وعلى نحو ما أشار إليه « دوزي » في معجمه ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في إقليم سفينة اسمها طيَّار وفي إقليم آخر اسمها زبزب وفي أقاليم ثانية اسمها المعبر والقارب .

فلنعد الآن إلى بعض الألفاظ التي فسَّرها تيمور باشا ، وإذا عدنا إليها فانها تتمّة للبحث عن تطوّر اللغة .

من هذه الألفاظ : المزمَّلة ، ذكرت في الجملة الآتية : عمد إلى ما عنده من قصب وحرير ومزمَّلات وآلة صيف ، فيفعل به مثل ذلك . قال المفسّر :

وربما يسبق إلى الذهن من ذكر المزمَّلة مع القماش والحرير أنها نوع من الثياب الثمينة ، والصحيح أن المراد بالقماش هنا متاع البيت وبالمزمّلة إناء للماء ، وقد استشهد بقول هلال الصابىء في تاريخ الوزراء لإثبات معنى المزمّلة ، قال الصابىء :

ودار كبيرة للشراب وفيها ماذيان يجعل فيه الماء المبرّد ، ويطرح فيه الثلج كدراً ويسقى منه جميع من يريد الشرب ، الرجّالة والفرسان والأعوان والخُزّان ومن يجري مجرى هذه الطبقة من الأتباع والغلمان ، ومزمَّلات فيها الماء الشديد البرد .

وقد استمرّ تيمور باشا في التوسّع في شرح معنى المزمّلة التي يبرّد فيها الماء من جرّة أو خابية خضراء ، وأشار إلى من قال إنها عراقية يستعملها أهل بغداد ، وإن كانت عربية المادّة والصياغة ، وأضاف إلى قوله أن أسلافنا سبقوا للاهتداء إلى ما لم نهتد إليه إلاّ من وقت قريب ، فإنها بهذا الوصف عين الزجاجة المحافظة لدرجة الماء ، وإن اختلف نوع الجهاز فيها ، ثم قال : وقد استعملت في بعض العصور للحوض الذي يشرب منه أبناء السبيل كما يفهم من وصف مزمّلة عملها المستنصر العباسي ببغداد ، ورد ذكرها في جزء مخطوط من تاريخ مجهول عندنا ، وفي خطط المقريزي في كلامه على دار المظفَّر وعثورهم فيها على عتبة من صوّان : فبعث بالرجال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لهذه العتبة وتكاثروا على جرّها إلى العمارة ، فجعلها في المزمّلة التي تشرب منها الناس الماء بدهليز المدرسة الظاهرية .

وإذا واظبنا على الاستشهاد بالألفاظ التي وردت في نشوار المحاضرة الدالّة على تطور اللغة في العصر العبّاسي امتدّ بنا نَفَس الكلام ، فليست غايتنا الاستقصاء وإنما غايتنا الاستشهاد ، فلذلك إنّنا ننصرف عن ألفاظ ثانية مثل الخيازر ، جمع خيزران ومثل المِسْوَرة وهي نوع من المتكآت أو المساند أو نوع للجلوس . على أنه قد ورد في بعض الفصول من ذكر الجواهر ما لا يكاد يتصوّره عقل ولا يهمنا من هذا كله إلا الاستدلال بهذه الألفاظ العبّاسية على تطوّر اللغة من جهة وعلى الحضارة الزاهية التي أدّت إلى هذا التطور ، فقد خلقت هذه الحضارة ألفاظاً تختلف الاختلاف كله عن ألفاظ البادية وخشونتها .

أمّا الآن فيجدر بنا ذكر بعض ألفاظ اقتضاها علم الاجتماع أو العمران وغير ذلك ممّا يدلنا على الحضارة المنوية بعد أن وقفنا بعض الشيء على آلات الحضارة المادية التي أشير إليها في كتاب نشوار المحاضرة أو في غيره من الكتب التي لم نذكرها .

من هذه الألفاظ التي جاء ذكرها في مقدمة ابن خلدون ، في القرن الثامن : الاجتماع الإنساني ... العمران البشري ... حفظ النوع وبقاؤه إلى مآت من هذه الألفاظ التي لا يمكن حصرها ولا يقوم بتوضيحها إلاّ بحث منفرد طويل ، فمن أراد الوقوف على لغة العمران أو الاجتماع أو السياسة أو المدنية أو الصناعات أو غير ذلك كالاقتصاد والزراعة فله مجال واسع في مقدمة ابن خلدون وكتاب ابن مسكويه وغيرها ، فاذا عنينا بالتدقيق في بعض هذه الألفاظ تبيّن لنا كيف اتسع مجال معانيها ، فنقلت من أفق ضيق إلى أفق مديد ، وإذا كان لا بدّ من الاستشهاد فانّنا لا نحاول أن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نضيع في هذا الاستشهاد ، فالحضارة مثلاً معناها في اللغة الإقامة في الحضر ، وهو معنى كما نرى ضيق جداً ، ولكن هذه اللفظة ، في عصر العلوم التي تقدّم ذكرها خرجت من ضيقها إلى سعتها فدلّت على كل ما اجتمع للأمة من الماديّات والمعنويات ، من آثار عمرانها وطراز حياتها وانبساط تفكيرها وأشياء كثيرة جمعتها كلمة الحضارة ، وما يقال في تطور لفظة الحضارة يقال في تطور غيرها من الألفاظ الداخلة في علوم الاجتماع أو العمران ، حتى وفي مذهب التطور ، إنّا نعلم أن الضروري منسوب إلى الضرورة وأن الكمالي منسوب إلى الكمال ، إلاّ أن لفظة الضرورة ضيقة وكذلك لفظة الكمال ، وغيرهما ، فإن طبقة هذه الألفاظ لمّا وضعت أراد بها أصحابها التعبير عن كل ما يحتاج إليه الإنسان أو الأمة في الحياة أو عن كل ما يفيض عن هذا الاحتياج ، وهكذا استطاع علم الاجتماع أو علم العمران أو غيرهما من العلوم التي أشار إليها ابن خلدون في مقدمته أن يجد الألفاظ التي تعبّر عن موضوعه وغرضه ، وإني لأشعر بظلم هذه العلوم إذا اقتصرت على ذكر ألفاظ قليلة منها دون الخوض في بحر هذه الألفاظ .

ولقد نجد في كتاب تهذيب الأخلاق لابن مسكويه بعض الألفاظ التي استعملها ابن خلدون في كلامه على التطور لما قال :

ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج ، آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له ، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لهما إلاّ قوة اللمس ، ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب أن يصير أول أفق الذي بعده إلى آخر ما جاء في هذا المقطع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وفي كتاب تهذيب الأخلاق لابن مسكويه الألفاظ التي استعملها ابن خلدون بعده مثل الأفق والاتصال وغيرها ، فالأفق في اللغة الناحية أو ما ظهر من نواحي الفلك ، ولكن هذه اللفظة في مذهب التطور الذي ذكره ابن مسكويه ثم ابن خلدون بعده تدل على شيء أوسع من هذا المعنى ، فإنها تدل على آخر ما وصل إليه عالم بحذافيره من عوالم المعادن أو النبات أو الحيوان ، فلم تبق محصورة في معناها الضيّق ، فهذا هو تطوّر الألفاظ .

إلاّ أن تطور اللغة في أيّام بني العبّاس وقبل أيّامهم لم يقتصر على نقل ألفاظ من مواضع إلى مواضع على نحو ما جاء في الألفاظ الإسلامية أو في بعض العلوم المستحدثة بعد الإسلام ، وإنما اتسع رجال اللغة في التطور فلجأوا إلى التعريب والتوليد ، وتعريب الاسم الأعجمي أن تتفوه به العرب على منهاجها ، وقد يخرج عن موضوعنا الدخول في تفاصيل التعريب وأقسام الأسماء الأعجمية التي غيرتها العرب ، والأمثلة من المعرّب كثيرة في فقه اللغة للثعالبي ، منها ما هو فارسي كالكوز والجرّة والإبريق والطشت والخُوان والطين ، أو كالألبسة مثل الخز والديباج ، أو كالجواهر مثل الياقوت والفيروزج ، أو كالطعام مثل الكعك والجردق والسميد والسكباج والفالوذج واللوزينج والجوزينج ، ومنها ما هو أصله رومي كالفردوس والقسطاس والبطاقة والقسطل وغيرها .

على أي شيء يدلّ المعرّب ، على اتساع العرب في الحضارة وحاجتها إلى ألفاظ تعبّر بها عن أدوات البيت والمآكل والملابس والأزاهير والأدوية ، إلى غير ذلك من الألفاظ التي تستلزمها لغة الحضارة .

وقد وردت ألفاظ معرّبة ولها أسماء في لغة العرب ، ولكن الأسماء المعرّبة غلبت عليها فماتت الأسماء العربية وعاشت الألفاظ المعرّبة ، من ذلك مثلاً : الميزاب وهو يسمّى : المثعب ، وقد مررت بهذه اللفظة في كتابات الشدياق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إلا ّ أنها ماتت وقامت مقامها الميزاب ، والعرب كانت تسمي الجاسوس : الناطس ، فماتت الناطس وعاشت الجاسوس ، والباذِنجان تسميه العرب : المَغْد ، فماتت المغد وعاشت الباذنجان .

فكثير من الأسماء المعرّبة لها أسماء عربية ولكنها غلبت على هذه الأسماء وعاشت وحدها ، ومن هنا يتبيّن لنا أن قانون تنازع البقاء يطبّق على اللغة كما يطبّق على الحيوان .

وكما لجأوا إلى التعريب فقد لجأوا إلى التوليد ، فالمولّد ما أحدثه المولّدون الذين لا يحتج بألفاظهم ، والفرق بينه وبين المصنوع أن المصنوع يورده صاحبه على أنه عربي فيصح وهذا بخلافه ، ومن غرائب ما اطلعت عليه من المولّد قول ابن دريد : آخ ! كلمة تقال عند التأوه وأحسبها محدثة .

فمن الألفاظ المولّدة الأطرش لأهون الصمم ، والعُجّة للطعام المتخذ من البيض ، والفِطرة لصدقة الفطر ، وستّي بدلاً من سيدتي ، والتفرج وهي من انفراج الغم وانكشافه ، والطفيلي نسبة لرجل من أهل الكوفة يقال له : طفيل يأتي الولائم من غير أن يدعى إليها ، فنسب إليـــه . إلى غير ذلك من الألفاظ المولّدة في عصر تطوّر اللغة .

وقد اشتقوا من الألفاظ الأعجمية أفعالاً ، من هذا النمط : نوروز أو نيروز ، وهي لفظة فارسية معناها اليوم الجديد ، فاشتقوا منها فعلاً وقالوا : نورز على وزن حوقل وهرول ونيرز على وزن بيطر وبيقر ، ومن هذا النمط لفظة : سُقّف تسقيفاً أي صُيّر أسقفاً والأُسقف رئيس للنصارى في الدين فوق القسيس ودون المطران وجمعه أساقفة وأساقف .

نستدل بهذا الاشتقاق كلّه على أن اللغة لم تجمد في القديم على شكل من الأشكال ، فليس بها يبوسة وجفاف ، مرّت بها مادّة الأُسقف وهي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

غريبة عنها فأدخلتها في مفرداتها وليَّنتها حتى هضمتها واشتقت منها فعلاً على جمود هذه المادَّة كما اشتقت فعلاً من نوروز أو نيروز .

وإذا كنَّا نستنتج من هذه الاشتقاقات لين اللغة وطراوتها فكذلك نستنتج لين الأُمة التي تنطق بها ، فاللغة القابلة للتليين إنما هي مرآة الأُمة القابلة لمثل هذا التليين ، فكما أن لغة العرب طيّعة تطاوع العصر في مظاهره فكذلك العرب كانوا طيّعين يطاوعون عصورهم في مظاهرها على نحو ما طاوعوها في انتقالهم من مضارب البدو إلى قصور الحضارة ، وفي هجرهم في هذه القصور لألفاظ ألفوها في مضاربهم وأُلفتهم لألفاظ اقتضتها حضارتهم التي دخلوا فيها .

أما وقد فرغنا من الايجاز في الكلام على تطور اللغة في زمن بني العبَّاس ، فلننظر الآن ماذا كانت نتيجة هذا التطور ، ماذا كانت نتيجة نقل معاني ألفاظ من مواضع إلى مواضع ، مادا كانت نتيجة التعريب والتوليد ، نتيجة هذا كله موت ألفاظ كثيرة في عصر الحضارة ، إذا كنَّا نقرأ معجمات اللغة فاننَّا نرى في بطون هذه المعجمات روح الوطن ولحمه ودمه ، هذه المعجمات مرآة الأُمة ، تعكس علينا مختلف أخلاقها وأمزجتها وطبائعها وصفاتها وترينا كلّ ما يتصل بحركاتها وسكناتها وانتقالها من طور إلى طور على تراخي السنين ، فقد يذهب عصر ويأتي عصر ، فيأخذ الآخر عن الأول ما تركه له من الألفاظ والأفكار والصور ثم ينقل هذا كله إلى العصر الذي يأتي بعده ، ولذلك نستطيع أن نقرأ كل تاريخنا في معجماتنا لأن هذا التاريخ قد أبقى في تضاعيف المعجمات ما خلَّفه من أدب وعلم وفلسفة واجتماع وعمران وسياسة ، من قصور وآثار ، حتى إننا نستطيع أن نقول إن علم اللغة إنما هو أكبر معوان للتاريخ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إلاّ أن هذه المرآة قد ترينا فضلاً عن كل ما تقدمت الإشارة إليه قوانين الحياة مثل قانون تنازع البقاء أو الانتخاب الطبيعي أو التطور أو ما شابه ذلك ، فنشهد هذه القوانين على أكمل وجه ، فمن هذه القوانين ما جرى في عصر بني العبّاس من موت ألفاظ وحياة ألفاظ ، ألفاظ انحدرت من البادية فلم يبق لها سبيل إلى الحياة في الحضر ، وألفاظ خلقت في الحضر فلا تستطيع أن تعيش في البدو .

لقد نشأت لغتنا في البادية ، فكانت لها خشونة هذه البادية في أول نشأتها ، ثم انتقلت إلى الحضر فكانت لها نعومة هذا الحضر ، فكيف تستطيع ألفاظ مثل هذه الألفاظ : الهِلْقِس وهو الرديء الأخلاق ، والهِجْرِس وهو اللئيم ، والهيجبوس وهو الأهوج الجافي ، كيف تستطيع ألفاظ مثل هذه الألفاظ أن تعيش في عصر استفحلت فيه مذاهب الحضارة ، فاقتضت هذه الحضارة رقة اللغة قبل أي رقة ، كيف تستطيع هذه الألفاظ أن تعيش في قصور بني العبّاس ، وما أدرانا ما اشتملت عليه هذه القصور من لطائف الحياة على اختلاف ألوانها ، حياة المآكل والمشارب والملابس والغناء والعمران ، كيف تستطيع هذه الألفاظ أن تشيع في شعر الشعراء وكتابة الكتّاب الذين كانوا يمثلون حضارة العصر ، لقد ماتت هذه الألفاظ بمجرّد هجرتها من بيئة خشنة إلى بيئة ناعمة ، فإن الحضارة لا تقبل في لغتها إلاّ الألفاظ السهلة ، الرقيقة ، الليّنة ، إن الحضارة لا تحتمل أشباه هذه المفردات التي تقدم ذكرها ، لذلك اطرحتها واعتاضت عنها مفردات تناسب رقتّها ونعومتها مثل : سيء الخلق .. رديء الخلق .. أهوج التي شاعت على ألسن العامّة فضلاً عن الخاصة ، فهذا دليل على أن أهل هذه اللغة ، لغة العرب ، بانتقالهم من الوبر إلى المدر رغبوا عن كل مظاهر البدو في لغتهم ، ومالوا إلى مظاهر الحضر . معنى ذلك أنهم خلقوا للتطور ، فلم يجمدوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على شكل من الأشكال ، فاطرحوا الألفاظ الخشنة الواردة في كل باب من الأبواب ، فلم يستطيعوا أن يقولوا في زمن بني العبّاس : الحَزَوْلَق للقصير المجتمع الخَلق ، والحَفَلَّق للضعيف الأحمق والدُعْشوقة للصبيَّة .

إنّا لا نفتح معجمات لغتنا إلاّ وقع نظرنا على آلاف من الألفاظ التي ماتت في لغة بني العبّاس ، فبطل بهذا الموت استعمالها ، فما أشدّ عمل الذين يجهدون في وضع المعجمات في عصرنا ، فقد يتنازعهم عاملان : عامل الحرص على اللغة وتدوين هذه اللغة في معجماتهم بحذافيرها لأنها تصوّر حياة العرب في تاريخهم أكمل تصوير ، وعامل الاستغناء عن الألفاظ التي ماتت ولم تبق حاجة إليها ، ولا ريب في أن هذا الاستغناء يدخل الألم على النفوس لأن هذه الألفاظ الميتة كانت لها حياة ناضرة في تاريخها ، فقد تقلّبت في أعطاف السعادة حتى كانت نتيجة هذه السعادة موتها ودفنها في بطون المعجمات ، كما مات حوشي الكلام وغريبه ، فالوحشي من الكلام ما نفر عن السمع ويقال له أيضاً الحوشي حتى إذا كانت اللفظة حسنة ، مستغربة لا يعلمها إلاّ العالم المبرّز والأعرابي القح فتلك وحشية ، وبمعنى الحوشي أيضاً الغرائب والشوارد وقد ألَّف الأقدمون كتباً في النوادر والشوارد .

ولكنّا نحمد الله تعالى على أنه إذا ماتت ألفاظ كثيرة في لغتنا قضت عليها حضارة العصر فقد خلقت لنا هذه الحضارة ألفاظاً غيرها تناسب حياتنا .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net